حرية الرأى

فى مدى العوامل غير الشعورية

للأستاذ حسين الظريفى

إن حرية الرأى لاتتمثل فى أن لنا أن نختار فيما نفكر وفى يقة التفكير وفيما نصل اليه من مبدأ وغاية ، ثم نقف عند ا المترفع من الحرية لانتقدم . وانما هناك شىء يسبق الاختيار ، أن نكون بمعزل عن التأثر بما ورثنا وبما حرثنا حتى اذا تلقينا كرة من غيرنا أو من عند أنفسنا بصفاء لايشوبه كدر كان من نا أن ندعها أو نصدع بها ، وتلك هى حرية الرأى فى شقيها لازمين .

إذا كان من حق الباحث أن يكون حر الاختيار تجاه أية ة تمن له من محيط نفسه أو من الخارج ، فأن من حق تلك كرة ألا تنظر بالعين الملونة بأصباغ الماضى القريب والبعيد ، قيمة الحيرة فى وسط غير مختار ؟

لقد عرف التاريخ أناساً كان فى وسعهم أن يأتوا ببعض ائق فى بعض المواقف ، وكان الظرف الذى عاشوا فيه يدعو هذه الدعوة ويهىء لها ، إلا أنهم كانوا من الخضوع لما عرفوا وا بحيث تهيبوا التفكير بكل جديد فروا بالحياة ولم تمر هى . وعرف التاريخ أناسا جاؤوا بالفكرة الصالحة وبالمبدأ الصالح يروا وما جاؤوا به ، ملومين غير مكرمين . ذلك لأن آراءهم لم تلمس إلا بيد كانت داخل قفاز مما وهب الماضى وكسب الحاضر ، فتراءت بلون غير لونها وأعطى لها دون وزنها . وكذلك يفعل المقلدون .

وظاهر ، أننا نرث ماترك لنا الاولون من عقائد وتقاليد . . . بشىء كثير من التقديس . وكل فكرة جديدة تعن لنا أو تعرض علينا إنما يحدد لها أمد البقاء بالقياس إلى قوة اصطدامها بالقديم الموهوب أو المكسوب . أما التقديس فأنه وليد الغموض الذى يحيط بنشأة كل قديم ، ولذلك نجد هذا التقديس يزداد أثراً فى النفس وقوة على البقاء كلما كان أوغل فى إبعاد الماضى السحيق وأبعد عن التعليل والتحليل . فالعقدة فى تقديس الشىء هى فيما يملو أصله من جهالة ، فمتى ما استطعنا رد ذلك الشىء إلى أصله الذى صدر عنه ، ظهر لنا تقديسه وكأنه ضرب من الوهم . وكان فى استطاعتنا أن نأخذه بضروب النقد وبالأخذ والرد وأصبحنا أحراراً فى موضوعه .

إن الخطورة ليست فى ذات الفكرة ، وإنما هى فى تلك الهالة التى تحيط بها وهى ليست منها فى شىء . ولاحق لنا فى حرية الرأى تجاه ذات الفكرة إن لم نهتك دونها الحجاب ونخرجها من الاطار الذى وضعت فيه . عند ذاك فقط يصح لنا أن نتمتع بحرية الرأى ونقول : هذا خطأ وهذا صواب .

وقد يقوم بيننا وبين حقيقة الشىء حجاب هو من صنعنا ومن وضعنا ، فيخرج الشىء عن حقيقته ويظهر لنا بغير مظهره فنشط بالحكم ونجور فيه ، على غير إرادة وعن غير شعور .

لقد قامت خصومات كثيرة على المناهج والمبادىء ، ولكنها كلها لم تنته بالنصر لأحد الفريقين المتخاصمين وبالتسليم على الفريق الآخر وانما بقيت الخصومة قائمة بينهما تهدأ تارة وتثور أخرى . كذلك الخصومات التى قامت وتقوم بين بعض المعاصرين على غير فكرة واحدة وفى أكثر من ميدان واحد ، فأنها لم تنته إلى نقطة اتصال وتفاهم ، وإنما زادت كل مخاصم تعصباً لفكرته ومقتاً لآراء الآخرين ، ولم ينقطع البحث إلا على القطيعة . وما كان هذا الحوار فى التلقى والإلقاء فى ميدان البحث والمناظرة إلا وليد تلك الأحياء التى تعيش فى أحشاء العقل الباطن ، وهى من غور قاعه ، ومن وراء قناعه تملى إرادتها على الشعور ، فتعمل ولا تسأل .

يرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
ى رُبْع أهليها فبانوا وغودر فى الثرى الوجه المليح

ويندد به فى معرض حديث ابن القارح مع آدم (ص) فى ، وسؤاله عن بيتين يعزوهما الرواة إليه فيجيبه آدم بقوله : ز علىّ بكم معشر أبيني . إنكم فى الضلالة منهوكون (أى : ون على غير هدى) آليت ما نطقت هذا النظيم ولا نطق به مرى ، وإنما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة لله . كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على أمكم ، وكذب بعضكم على بعض » .

(البقية فى العدد القادم)

كامل كيلانى